

[٣٩٩ - عن عبدالرحمن بن أبي بكره رضي الله عنه قال: كتب أبي - وكتبت له - إلى ابنه عبدالله بن أبي بكره، وهو قاضٍ بسجستان: لا تحكم بين اثنين وأنت غضبان؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان).
وفي رواية: (لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان) .]

اشتمل هذا الحديث على أدب من آداب القضاء، وهذا الأدب بين فيه النبي ﷺ أن على القاضي أن يستجمع الأسباب التي تعينه على معرفة الصواب، وأن يتعد عن كل ما يشوش فكره، ويعكر صفوه؛ حتى لا يلتبس عليه وجه الحق، والإنسان ضعيف - كما شهد الله ﻋﻨﻚ -، وهذا الضعف من شأنه أنه إذا جاءه ما يشوش عليه وعلى فكره: أثر ذلك في حكمه إذا كان قاضياً. وذكر النبي ﷺ الغضب؛ لكي ينبه به على غيره، ومن هنا: ألحق العلماء - رحمهم الله - بهذا: شدة الفرح، فشدة الغضب، وشدة الفرح، وكذلك إذا كان حافئاً، أو كان في حر شديد، أو برد شديد يزعجه ويقلقه: فإنه لا يتولى القضاء؛ لأن هذا سيؤثر عليه، وهذا من آداب القاضي في مجلس القضاء. وهناك آداب للقاضي قبل القضاء، وآداب أثناء القضاء، وآداب بعد القضاء، ثم هناك آداب في القضاء، وآداب في غير القضاء - كما في حال مخالطته للناس -، ومحل تفصيل ذلك في كتب الفقه: حيث اعتنى الفقهاء - رحمهم الله - بباب أدب القاضي، وذكروا النصوص في الكتاب والسنة التي تدل على أنه ينبغي على القاضي أن يكون على حال يعينه على الوصول إلى الحق بالبعد عن من يشوش ويعكر صفوه، وكذلك أيضاً: أن يكون على حال يصون به القضاء من التبذل، ومن التهمة بالميل للخصوم. وهذا يعتبر من أمثلة آداب القضاء: أن يكون القاضي في حالة من الصفاء بعيداً عما يكدره، والغضب يخرج الإنسان به عن طوره - غالباً -، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وهذا من شدة غضب موسى - عليه السلام - أنه ألقى الألواح ﴿وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وفيها آيات الله، لكنه من شدة الغضب ألقاها. فالغضب يؤثر على الإنسان. وقال

حكاية عنه: ﴿وَبَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ فالغضب يؤثر الغضب عليه في فكره، ويؤثر عليه في منطقته وفي حاله، فبين النبي ﷺ أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي وهو غضبان. ولا شك أن في حكم الغضب: شدة الفرح، وكذلك شدة الحزن - إذا كان شديد الحزن - : كأن تأتبه - لا قدر الله - مصيبة، أو يفجع بشيء، فكل هذا يمنع من أن يتولى القضاء. وألحق بعض العلماء بهذا: معاني التهم؛ صيانة للقضاء، قالوا: لأن الغضب قد يجعله أثناء الخصومة يعنف الخصوم ويؤذيهم؛ لأن حاله حال ضيق، فهو يؤثر من وجه على استجماع الفكر، ويؤثر على الأخلاق أثناء تعامله مع الخصوم، ولا بد للقاضي أن يكون حيادياً، بعيداً عن الميل لأحد الخصمين على الآخر. فإذا كان في حال الغضب: ربما راجعه الخصم، أو حصل بينه وبين الخصم أخذ وعطاء، فمن شدة الغضب ربما يعنف الخصم، وحينئذ: يشك ويؤثم فيه - يشك أنه مائل للخصم الثاني -! والمنبغي على القاضي: أن يكون في مجلسه، وفي كلامه، بل حتى في لحظه ونظره: أن يعدل بين الخصمين، وقالوا: لا يجلس خصماً عن يمينه وخصماً عن يساره؛ لأن الذي عن يمينه يشرف أكثر من الذي عن يساره، ولا يقدم أحدهما في الدخول على الآخر، ولا يقوم لأحدهما فيحتفي به أكثر من الآخر. وجاء رجل إلى علي رضي الله عنه وأرضاه - وزاره في بيته، فلما جلس في بيته: أضافه علي، وأصاب الضيافة، فقال: يا أمير المؤمنين، إني خصم. فقال له: "اخرج وادخل مع خصمك". أي: لا أقضي عليك وأنت ضيف، بل ينبغي أن تدخل عليّ مدخل الخصوم! وكان السلف لهم في ذلك شأن عظيم، وكانت لهم القصص التي تُكتب بماء الذهب، وتسطر في دواوين المجد، من الصدق في نزاهة القضاء، وعدم تفضيل الخصوم بعضهم على بعض، ومن أصدق ما كان من ذلك: قول أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - في خطبته حينما ولي الخلافة: "القوي منكم ضعيف حتى أخذ منه الحق، والضعيف منكم قوي حتى أرد إليه الحق". ومما ذُكر في السير: أن أحد خلفاء بني العباس أتى إلى المدينة في حجة من الحجج، فلما نزل واستقر به المدينة: جاءه رسول القاضي يقول له: إن هناك خصوماً يريدونك إلى مجلس القضاء. فأمر حاجبه أن يأمر الناس أن لا يقوموا له عند خروجه، وأنه سيذهب إلى مجلس القضاء، فخرج إلى مجلس القضاء، فصلى في المسجد التحية، ثم جاء إلى القاضي، وإذا بالخصوم

الجمالون - أصحاب الجمال الذين حملوا المتاع للوصول إلى المدينة -! فلما أراد أن يجلس: فرش الحاجب له فراشه، فقال له القاضي: يا أمير المؤمنين، لا تترفع على خصمك! إما أن تفرش لهم كما فرشت لنفسك، وإلا جلست معهم على حصير المسجد. فجلس معهم على حصير المسجد، فقام الخصوم، وقالوا: إنهم لم يأخذوا أجرهم، فقال له: ما تقول؟ فقال: إني قد أمرت وكيلي أن يعطيهم. فقال: تأمر بحقهم الساعة. قال: أفعل. فلما قال: "أفعل" قام القاضي وانصرف من مقامه، وجلس وراء ظهره، فتغير وجه الخليفة، وقال: ويحك! ماذا تفعل؟! فقال: كنت في حق الله، وأنا الآن في حق الخليفة. "كنت في حق الله" يعني: أني القاضي وأعلو عليك بالحق، أما الآن - وقد رضيت وأعطيت الخصم حقه - : فإني آتي وراءك؛ لأني تبع لك، لما رأه قد أنصف الناس من نفسه. وهناك قصص كثيرة للسلف - رحمهم الله - تبين حرصهم على عدم تفضيل الخصوم بعضهم على بعض، ومن هنا: بارك الله في قضائهم، ونفع الله بهم. ولا يزال هناك بقية باقية متمسكة بالحق، تلتزم بالهدى، والله وَعَبَّكَ يقدر صاحب الحق بصدقه مع ربه، وإخلاصه لوجهه. فالشاهد من هذا: أنه يجب على القاضي أن يتعاطى الأسباب التي تبعده عن التشويش "تشوش الفكر"، سواء كانت بالغضب أو كانت بغيره.